ويغيب نجم

أ. د. محمود أحمد السيّد(*)

ما أمرَّ أفولَ النجوم الثقافية من سماء وطننا العربي في وقت نحن في أَمسِّ الحاجة فيه إلى إشعاعاتها!

وما أقسى غيابَ قامات شامخة وقفت نفسها لخدمة أمتها عبر مسيرتها، فكانت القدوة والمثال الحيّ سموّاً معرفيّاً، وكمالاً مناقبيّاً، وعطاءً فكريّاً متعدد المناحي!

لقد فقدت أمتنا العربية عالماً كبيراً من علمائها، ألا وهو الصديق الصدوق الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب رئيس المجمع العلمي اللغوي في بغداد، رحمه الله الرحمة الواسعة سعة ما قدمه لأمته من أفانين العطاء العلمي الهادف.

ومن يطلع على السيرة العلمية للأستاذ المرحوم الدكتور أحمد مطلوب يجد أنه كان متميزاً في أدائه منذ أن كان طالباً في مرحلة الإجازة الجامعية الأولى إذ حصل على الشهادة من قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم ببغداد بدرجة امتياز عام ١٩٥٦، وكان الأول على جميع أقسام الكلية، وكان متميزاً في دراساته العليا، فقد حصل على شهادة الدكتوراه في البلاغة والنقد بمرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة سنة ١٩٦٣.

(*) رئيس اللجنة الوطنية العليا للتمكين للغة العربية في سورية، ونائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

وكان رحمه الله متميزاً في عمله التدريسي الجامعي ومشهوداً له في الكفاية العلمية في جميع الأماكن التي عمل فيها، إنْ في جامعة بغداد، أو في جامعة الكويت، أو في الجامعة المستنصرية، أو في جامعة وهران بالجزائر، أو في جامعة مارتن لوثر في ألمانيا، إضافة إلى عمله أستاذاً محاضراً في معهد البحوث والدراسات العربية العليا بالقاهرة سنتي ١٩٦٨ و١٩٧٠، وفيه ببغداد سنوات ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، وعمله أستاذاً محاضراً في معهد التطوير الإذاعي في السنوات ١٩٨٣ و١٩٨٤ و١٩٨٥ وما بعدها.

لقد عرفتُه في سبعينيات القرن الماضي عندما كان أستاذاً في قسم اللغة العربية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الكويت برفقه قرينته الفاضلة المرحومة الأستاذة الدكتورة خديجة الحديثي، وكنت آنئذ أعمل في كلية التربية ومعهد التربية للمعلمين ومعهد التربية للمعلمات في الكويت، وكان الصديق العراقي المرحوم الأستاذ الدكتور صدقي حمدي زميلاً لنا في العمل في المعهد، وكان جاراً لي في السكن.

ولقد كانت للمرحوم الدكتور مطلوب ورفيقة دربه المرحومة الدكتورة خديجة جهود طيبة في ترسيخ دعائم التدريس الأكاديمي والبحث العلمي في كلية الآداب، وقد أشرفا على طلبة عدة في الدراسات العليا بعضهم من العرب وبعضهم الآخر من غير العرب، وكانا مضرب المثل في الموضوعية والنزاهة والاستقامة، فإذا ذُكِرا ذُكِرتِ المناقب الرفيعة، والقيم السامية، والجدية في العمل وإتقانه، والحرص على المستوى العلمي الراقي.

وشاءت الظروف أن ألتقي الدكتور مطلوب رحمه الله في رحاب مؤتمر التعريب الذي عقد في دمشق عام ٢٠٠٢، وكنت آنئذ وزيراً للتربية في الجمهورية العربية السورية، ورئيساً لهذا المؤتمر. ولا يمكنني أن أنسى

إسهاماته الغنية في المؤتمر مناقشةً للمصطلحات المنجزة والمعروضة، وتعقيباً على أوراق العمل المقدمة، وكانت آراؤه وملاحظاته محلّ تقدير المؤتمرين كافة.

وتتالت لقاءاتنا في مؤتمرات مجمعَيِ اللغة العربية بدمشق والقاهرة، وفي اجتماعات اتحاد المجامع اللغوية العلمية في الوطن العربي في القاهرة، فكان نعم الصديق، ونعم العالم الرزين والرصين، ونعم الناصح الأمين.

وإن أنسَ لا يمكنني أن أنسى مشاركته الإيجابية والمتميزة في المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق عام ٢٠٠٨، وكان عنوان المؤتمر (التجديد اللغوي)، وقد ألقى فيه بحثاً أصيلاً عن التجديد اللغوي في البلاغة، تحدث فيه عن التجديد اللغوي في البلاغة، وفرَّق فيه بين دعوات هدامة للقضاء على أهم مقومات وحدة الأمة العربية وبين دعوة المخلصين من أبناء الأمة الغيارى على عروبتهم ولغتهم، وهي دعوة تنطلق في تجديدها من أصول اللغة العربية وخصائصها التي تتميز بها، والتجديد عندهم ليس الهدم الذي دعا إليه بعض المستشرقين ومن والاهم، وإنما هو التيسير الذي يجعل اللغة على كل لسان؛ وأبان أن التجديد في البلاغة تجلّى لدى أمين الخولي وعبد الله العلايلي وأحمد الشايب وأحمد مطلوب ومحمد عبد المطلب، وكان لهم دور في رسم منهج البلاغة وتيسير مباحثها، وكان تجديدهم ينبع من التراث ومما استجد في العصر الحديث من دراسات تتصل بالبنيوية والأسلوبية والشعرية وما بينها وبين الدرس البلاغي من صلات.

وأشار إلى أن الاكتفاء بالمؤتمرات لا يحلّ مشكلة اللغة، ولن يجدي نفعاً كبيراً ما لم يُنْجَزِ التعريبُ في الوطن العربي كله، ويكن البحث والتأليف والتدريس باللغة العربية كما هو الآن في سورية التي صمدت أمام

التحديات قرناً كاملاً، وستصمد إلى ما شاء الله، لأن هذا قدرها وقدر كل مخلص من العرب.

وكان ثمة توجه في المؤتمر المتعلق بالتجديد اللغوي في البلاغة إلى:

١- إلغاء التقسيم الثلاثي وجعل البلاغة فنّاً واحداً، وبحث موضوعاتها في ضوء الترابط بين واحد وآخر، وما أشار إليه البلاغيون الجدد من مستويات: المستوى الصوتي والمستوى التركيبي والمستوى الدلالي.

٢- الاهتمام بالمستوى الصوتي والألفاظ ودلالاتها وما فيها من جمال وجرس له أثر في التعبير، وأن يكون البحث في الفصاحة من صميم المستوى الصوتي، وهو ما عُني به القدماء كابن سنان الخفاجي وضياء الدين بن الأثير.

٣- البحث في الجملة وأحوالها، وما يحدث فيها من حذف وذكر وتقديم وتأخير، وارتباط الجمل مما بحثه البلاغيون في موضوع الفصل والوصل.

٤- البحث في الفقرة والقطعة الأدبية والنص الكامل ما أمكن ذلك.

٥- البحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من مباحث علم البيان.

٦- التقليل من التقسيمات والتفريعات التي يضل الدارس فيها.

٧- توحيد المصطلحات والأخذ بأكثرها دلالة على الفن البلاغي، وترك التسميات المتعددة للفن الواحد، إذ بلغت مصطلحات البلاغة الأساسية والفرعية أكثر من ألف مصطلح.

٨- تنقية البلاغة مما علق بها من مصطلحات الفلاسفة وأهل

المنطق والعلوم التي لا تمت إليها بصلة وثيقة مثل: الكم، الكيف، العرض، الجوهر، المؤمن، الدهري، الماهية، التأسيس، الموجبة، السالبة، اللذة، الألم، حرارة الحروف وبرودتها ورطوبتها ويبوستها... إلخ.

٩- تحلية البلاغة بما استجدّ ويستجدّ من دراسات بلاغية ونقدية وأدبية وجمالية، مما يرفدها بكل جديد لا يهدم أصولها، ولا يمحو معالمها.

١٠- الاهتمام بعرض الفنون البلاغية بأسلوب رفيع يثير المشاعر، ويحرّك النفوس قبل أن ينفذ إلى العقول فتدركه، لأن البلاغة فن يرتبط بالذوق والإحساس الروحاني.

١١- اختيار النصوص الرفيعة، وتلمُّس البلاغة فيما استجدّ من فنون أدبية تعبر عن المعاصرة.

١٢- تحليل النصوص تحليلاً أدبيّاً، والابتعاد عن المماحكة والتحليل الذي يجعلها طلاسم.

١٣- توحيد أسلوب التأليف، وعدم الانتقال من أسلوب إلى آخر كما كان القدماء ينتقلون إلى أساليب الفلاسفة وأهل المنطق عندما يناقشون، وأساليب الفقهاء حين يعلّلون، وأساليب النحاة حين يعرضون لمباحث علم المعاني، ويفصّلون القول فيها.

١٤- الدعوة إلى التكامل بين النحو والبلاغة، بمعنى أن نضع ما يتصل بموضوعات النحو من موضوعات علم المعاني في البلاغة في سنة واحدة، فالمعارف في النحو ترافقها في السنة نفسها دراسة دواعي التعريف والتنكير من علم المعاني، ومواضع ذكر

المبتدأ والخبر وحذفهما وتقديمهما وتأخيرهما ترافقها دواعي الذكر والحذف ودواعي التقديم والتأخير، حرصاً على وحدة الموضوعات التي فرقتها مناهجنا وأساليب تعليمنا تأليفاً وتوزيعاً للموضوع الواحد بين المدرسين والامتحانات حتى تمزّقت في عقول الطلبة، ولم يقم في عقولهم أنها مادة واحدة وأن لها جميعاً هدفاً واحداً يحسن أن نبلغه ونبلّغه على حدّ تعبير الأستاذ الدكتور مازن المبارك.

لم يكن الدكتور مطلوب مجلّياً في أدائه التدريسي والأكاديمي فقط، وإنما كان متميزاً في الوظائف الإدارية التي شغلها عبر مسيرته، وقد عمل عميداً لكلية الآداب في جامعة بغداد بالوكالة سنتي ١٩٦٦ و١٩٦٨، ثم بالأصالة عامي ١٩٨٤- ١٩٨٦، وعمل رئيساً لهيئة العناية باللغة العربية خلال الأعوام ١٩٩٢-١٩٩٦، ثم عيّن أميناً عامّاً للمجمع العلمي العراقي من ١٩٩٦ حتى ٢٠٠٣، وأصبح رئيساً للمجمع منذ سنة ٢٠٠٧ إلى أن توفاه الله، وتسلّم وزارة الثقافة والإرشاد في العراق من قبلُ سنة ١٩٦٧.

وتجدر الإشارة إلى أن فقيدنا الكبير كان عضواً عاملاً في المجمع العلمي العراقي منذ عام ١٩٨٥ وعضواً عاملاً في المجمع الملكي (مؤسسة آل البيت الملكية للبحوث الإسلامية في الأردن) منذ عام ١٩٩٢، وعضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ٢٠١٦، وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق منذ عام ٢٠٠٠، ومؤازراً في مجمع اللغة العربية الأردني منذ عام ١٩٨٨، وعضو اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في القاهرة منذ عام ٢٠٠٧، وعضو المجلس العلمي في مكتب تنسيق التعريب بالرباط منذ ٢٠٠١.

لقد كان فقيدنا معطاء بكل ما تحمل كلمة العطاء من معانٍ ودلالات، إذ لم يقتصر عمله على التدريس، وإنما كان له في الصحافة باع كبير، فقد شارك في تحرير بعض المجلات رئيساً للتحرير أو عضواً لهيئة التحرير أو عضواً استشاريّاً في هيئة التحرير، وقد زادت المجلات التي عمل فيها على ثلاث وعشرين مجلة. وألقى كثيراً من الأحاديث الإذاعية في ستينيات القرن الماضي، كما قدّم عدة ندوات تلفزية حاور فيها أعلاماً بارزين.

أما اللجان الدائمة التي كان عضواً فيها فقد بلغت سبعاً وعشرين لجنة أغلبها في المجمع العلمي العراقي، إضافة إلى مئات اللجان المؤقتة، ومنها لجان مناقشة رسائل الدراسات العليا في العراق والأردن ومصر والكويت، ذلك كله إلى جانب كونه عضو مجلس أمناء هيئة المعجم التاريخي للغة العربية منذ عام ٢٠٠٧.

وإذا وقفنا على الكتب والبحوث التي ألَّفها فقيدنا الكبير فإننا لنقدِّر عالياً وفرة هذه الكتب المؤلفة والمحققة ووفرة البحوث العلمية المنشورة في المجلات العلمية المحكمة، إذ إنه ألّف واحداً وتسعين كتاباً في البلاغة والنقد والأدب والثقافة والمعاجم والتعريب والتراث والمصطلحات، وأصدر ستة عشر كتاباً محققاً من كتب التراث في الشعر وبلاغة القرآن والأدب، ونشر أكثر من مئة وثلاثين بحثاً علميّاً داخل العراق وخارجه. وقد نشرت كتبه في بغداد والكويت والقاهرة وبيروت والموصل وعمان وديالى، وكانت أغلب الكتب المحققة التي نشرها بالمشاركة مع قرينته الفاضلة المرحومة الدكتورة خديجة الحديثي.

ولقد أسهم عالمنا الجليل الدكتور مطلوب في تأليف الكتب المدرسية في وزارة التربية بالعراق بمشاركة نوري القيسي وعبد المطلب الهاشمي في

بعضها، ومشاركة الدكتور عمر الملا حويش وعبد الرضا صادق في تأليف كتاب البلاغة للمدارس الإسلامية، وقد طُبع عدة مرات.

وغني عن البيان أن فقيدنا كان شاعراً مشهوراً أيضاً، وقد صدرت له عدة كتب شعرية منها: مرافئ الصبا، أحبك يا عراق، حبيبتي بغداد، حبيبتي وفاء، حبيبتي سناء، حبيبتي فداء، رفيف المنى، لولا حبك، إضافة إلى مجموعة رباعيات منها: أنين الزمن، أنين الشجن، أنين الوطن.

ولقد نال بكل جدارة وكفاية عدداً من الأوسمة والجوائز والدروع، ومن الأوسمة التي حازها وسام الدولة للآداب في العراق سنة ١٩٨٧، ونوط الامتياز من الطبقة الأولى من مصر سنة ١٩٩٠، ونوط الاستحقاق العالمي من العراق سنة ١٩٩٣ و٢٠٠٠ و٢٠٠٢، ووسام العلم سنة ٢٠٠٠، وشارة العلم سنة ٢٠٠٠ و٢٠٠١ و٢٠٠٢، ثم وسام جائزة الملك فيصل العالمية سنة ٢٠٠٨. ومن الجوائز التي نالها جائزة الدولة التقديرية للآداب في العراق سنة ١٩٨٧، وجائزة الملك فيصل العالمية سنة ٢٠٠٨ في قضايا المصطلحية.

ومن الدروع التي سُلّمت له تقديراً لعلمه وجدارته درع وزارة الثقافة والإعلام عام ١٩٨٧، ودرع كلية التربية في الجامعة المستنصرية سنة ١٩٩٢، ودرع جامعة مؤتة في الأردن عام ١٩٩٨، وجامعة الكوفة عام ٢٠٠٩، وجامعة ديالى عام ٢٠١٠، ودرع بيت الحكمة عام ٢٠١٢، وجامعة الزيتونة الأردنية عام ٢٠١٣، ودرع يوم اللغة العربية العالمي من مجلس الوزراء بالعراق عام ٢٠١٣.

ومن الفعاليات والمناشط التي قام بها فقيدنا الكبير إسهامه في أعمال المؤتمرات والندوات على جميع الصعد محليّاً وعربيّاً وإقليميّاً وعالميّاً، وبلغ عدد الندوات والمؤتمرات التي حضرها وشارك فيها في العراق وخارجه أكثر من مئة ندوة ومؤتمر.

ولكم كنت أنتظر بشوق عارم لقاءه في المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة واجتماع اتحاد المجامع العلمية اللغوية العربية على هامشه، فقد كنا نستقل السيارة معاً من الفندق الذي كنا نقيم فيه إلى مقر المؤتمر في المجمع، ومن المؤتمر إلى الفندق، ونتناول الغداء معاً، ونتبادل الأحاديث والآراء في أعمال المؤتمر وهموم اللغة.

وكان مجمع القاهرة في مؤتمره الذي يمتد أسبوعين كاملين يخصص ثلاثة أيام منها للقيام برحلة إلى أحد المنتجعات السياحية، فكنا نتزامل في هذه الرحلات، وصادف أن اعتذر رحمه الله عن عدم اشتراكه في إحدى الرحلات، وكنت أصطحب معي مخطوطة لكتابي «أزاهير أدبية»، وفيه مختارات لأدباء اتسموا بفرط الحساسية واتقاد المشاعر ورهافة الوجدان، واشتمل على عشرة فصول في الأمثال والحكم والتصوف والحب والعشق والحنين والتعلق بالوطن وقضايا الأمة والوصف والسمات الشخصية والنفسية والتربية والتحلي بالمناقب... إلخ؛ وطلب إليَّ أن يحتفظ بالمخطوطة معه في الفندق ليطلع عليها، وهو مقيم فيه في أثناء اشتراكي في الرحلة، واطلع رحمه الله على المخطوطة، وسجّل بعضاً من ملاحظاته القيمة، واقترح أن أضيف إلى فصل أزاهير مسقية بالدمع قصيدة الشاعر نزار قباني في رثاء زوجته بلقيس، فهي من عيون الشعر والأدب، وأخذت بمقترحه وشكرت له ذلك مسجلاً له الشكر في مقدمة كتابي.

لقد افتقدته في المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة عام ٢٠١٨، إذ لم يحضر أعمال هذا المؤتمر، بسبب وضعه الصحي، وإنما أرسل بحثاً إلى المؤتمر عنوانه «الغزو اللغوي» وُزّع على المؤتمرين، وكان آخر بحث أطلع عليه لفقيدنا الكبير، وقد أبان في بحثه أن أهم معالم الغزو إعلاء لغة المحتل

والتبشير بها، وفتح المعاهد لتعليمها وتكريم دارسيها، وتعيينهم في الوظائف العامة دون غيرهم ممن لا يعرفون لغة الغازي، ظنّاً أن لغته عالمية. ومن معالم الغزو الادعاء بأن اللغة العربية ليست لغة علمية، والدعوة إلى العامية، وهذه من أخطر أهداف الاستعمار؛ والدعوة إلى الأخذ بالحرف اللاتيني، وإهمال الشهور العربية، واستعمال أسماء الشهور الفرنسية في المغرب العربي، وأسماء الشهور الإنجليزية في دول الخليج العربي، والتراجع في التعريب، ومحاولة إلغاء تدريس العربية في أقسام غير الاختصاص، والسماح للدول الأجنبية بفتح كليات وجامعات تدرس بلغات دولها، والسماح لرياض الأطفال ومدارس التعليم الأساسي والثانوي بالتعليم بالأجنبية، واتخاذ اللغة الأجنبية لغة السوق. وأبان الباحث أن الاهتمام باللغة الأجنبية شيء، والتدريس بها شيء آخر، ففي الأول انفتاح على الثقافة والحضارة والعلوم، وفي الثاني قهر للغة الأم.

ووقف الباحث على ما يروّجه دعاة العولمة من أنهم يريدون عالماً موحداً يسيطر عليه القطب الواحد الذي يفرض لغته وثقافته ونمط حياته، ويَسْعَون إلى نشر اللغة الأجنبية وإشاعة العامية، وصهر المجتمعات في بوتقة واحدة. وأوضح أن الاهتمام بالعربية والحفاظ عليها يقتضي إيمان السلطة بأهمية العربية، وأن تكون حارساً أميناً عليها، وإصدار قوانين لحمايتها، ونشر الوعي اللغوي بين المواطنين في وسائل الإعلام المختلفة، وتشكيل هيئات عامة للعناية بالعربية، تكون مسؤولة عن تنفيذ قوانين الحفاظ على اللغة، وأن يكون لمجامع اللغة سلطة تنفيذية، وأن ينفذ التعريب بقرار سياسي كما فعلت سورية في مطلع القرن العشرين، وما حدث في العراق في سبعينيات القرن الماضي، والاهتمام بالترجمة، وألّا

يسمح للتعليم الأجنبي بمَدِّ خيوطه اللغوية ليبعد المواطنين عن لغتهم، ودراسة التراث اللغوي دراسة معمقة وإجراء بحوث مستفيضة، وإنشاء منظمة دولية تُعنى باللغة العربية على غرار المنظمة الدولية الفرانكفونية، مهمتها وضع الخطط الكفيلة بالحفاظ على سلامة العربية وتنميتها ونشرها في العالم، على أن يكون لها سلطان تنفيذي في جميع أنحاء الوطن العربي، ويكون ارتباطها بالمنظمة الإسلامية أو بجامعة الدول العربية.

وخلص الباحث في نهاية بحثه إلى أن الغزو اللغوي الذي أعقب الاحتلال أفقد العرب هويتهم حين جنحوا للغة المحتل، وكادت العربية تصبح نسياً منسيّاً حين بدأ التعليم بالأجنبية، وأن الأخذ بالأجنبية في التعليم والعمل كاد يفضي إلى التشرذم، وفي هذا ضياع الهوية العربية، وهو ما تسعى إليه العولمة وقطبها الواحد. والغزو اللغوي أول الشرر، فهل من يخمده قبل أن يصبح ناراً تحرق الأخضر واليابس؟.

ذلكم هو آخر بحث أطلع عليه لفقيدنا الكبير. أما آخر اتصال هاتفي جرى بيننا فقد كان في شهر آب الماضي عندما اتصل بي مهنئاً بحصولي على جائزة الدولة التقديرية في البحوث والدراسات، إلا أن فرحتي بهذا الاتصال لا تعادل إلا جزءاً يسيراً جدّاً من الألم الذي أحدثه نبأ رحيله عنا إلى الدار الآخرة، ورحم الله حكيم المعرة القائل:

إنّ حزناً في ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

رحمك الله أيها العالم العلّامة الجليل القدر والمكانة، والمشهود له بالرزانة والرصانة، فكم في بحوثك من فِكَر مستنيرة ورائعة ومن توجهات خيّرة ولامعة! وجزاك الله عن أمتك ولغتها الخالدة خير الجزاء.

* * *